

## في رثاء رءوف عباس: كونوا مصريين أولاً

28 يونيو 2008

سيد عشاوي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر كلية الآداب- جامعة القاهرة

تتلذت علي يديه في أواخر ستينيات القرن الماضي، ومنذ أن عينت معيداً في أوائل السبعينيات، واقتربت منه أكثر في أواخر الثمانينيات بعد عودتي للعمل بكلية الآداب، جامعة القاهرة، كان بعض ضعاف النفوس يعتقد أن الوقت قد حان لتصفية حسابات والدخول في مهاترات وحاولوا أن يستميلوني إلي جانبهم لإحباط مساعي رءوف عباس وهو يواجه ومعه مجموعة من الشرفاء إحدى قضايا الفساد والإفساد الإداري، كان رءوف عباس يتلقى صدمات وضربات موجعة من بعض المقربين إليه، ومن بعض تلامذته «واللي يقول الحق راسه تندق»، حاول البعض أن يثنيه عن طريقه ويتحول، ويترك الفساد يجري في مجاريه، لكنه احتمل الأذى، وسار في طريقه قدماً لا يلوي علي شيء وهو صاحب «مشيناها خطي».

كان بمستطاع رءوف أن يبيع ضميره، وأن يدع الأمور تجري علي أعنتها «واهي خربانة خربانة» لكنه تصدى بإرادة قوية وعزيمة صادقة ويعلم الله، كم كان رءوف صادقاً، كل الصدق في موقفه، ولكن في زمن الردة والتردي واستشراء الفساد وتزايد «وأه يا زمان الأونطة والفهلوة والشنطة» تكاثرت الكلاب تنهش فيه وتصيب برذاذها تلامذته ومريديه. وكان كتابه «مشيناها خطي» تيرئة للنفس وتطهراً ومحاولة من مؤرخ في كتابة ذكريات له، حاول بقدر الجهد أن يوفق بين البعد الذاتي والبعد الموضوعي، فحياته مرحلة من مراحل تطور مجتمعه خلال أكثر من نصف قرن بما فيه من مد وجزر حياته جزء لا يتجزأ من تاريخ بلاده شهادة من مؤرخ للتاريخ بكل ما فيها من شفافية وجرأة وتطهر، الأمر الذي جعل الكتاب يصدر في أكثر من طبعة، أقلية تعد علي الأصابع تصدوا له وحاولوا إدانته ورفعوا قضية ضد ما باح به بكل شفافية، لكن الغالبية احترمت جراته وحقه في إبداء الرأي وإصراره عليه، ولم يكن هذا تكريماً له، بل تكريماً للفكر لإنساني المنطلق، حيث يبقي دائماً للباب من رسالته جديراً بالحمد والتتويج بالثناء الصريح في زمن أصبح البوح محرماً وكشف الستار عن مثالب الفجار اقتحاماً يضير المقتحم ويعرقل مسعاها.

أكثر من عقدين من الزمان اقتربت أكثر فأكثر من رءوف عباس رأيت فيه النموذج والمثال لصلاية العزم لا يوهنه الملل ولا يرهبه الكلام، سراحة بالغة في كتابته وكلامه، إقداماً يستهزئ بالغوائل، إخلاصاً لوطنه وتفانياً في حب هذا الوطن، شجاعة نادرة في نبذ الشقاق والتميز الديني تمشين الأخوة في الوطن لواحد، يذكر طلبته دائماً كيف تعانق الهلا والصليب وانتلف القرآن والإنجيل وتعانق الشيخ والقسيس، ويدعوهم «كونوا مصريين قبل كل شيء» سفره خارج مصر، أعطاه فرصة أكبر للمقارنة بين تقدم البعض وتخلف وتأخر مصر، عندما أصدر كتابه المهم «اليابان في عصر مايجي» هزته التجربة، عيناه علي اليابان وقلبه علي مصر، في أحاديثه كان يذكرنا ببعض انطباعات عابرة عن معاني الوطنية والإخلاص، عن صورة رآها وهو في اليابان: طفل صغير مع أمه يقف علي مقعد في قطار فتنهره أمه قائلة له: «لا يليق بياباني أن يفعل مثل هذا!!!»

رعوف عباس من جيل كون ذاته بذاته، مقالاته وأحاديثه تدل علي نضجه الفكري واطلاعه الواسع حيث لا يختلف اثنان في قيمته ووزنه الفكري. في ارسائه تقاليد وقيما جامعية، هو وصحبه أصبح من الأفراد القلائل الذين أرسوا ودعموا مدرسه تاريخ مصر الاجتماعي الحديث، كان حصوله علي جائزة الدولة التقديرية لا محابة ولا كراماً، بل إحقاقاً للحق، دفعه للشباب للعمل والدراسة، العمل الجماعي، لا الفردي، في مؤتمراتهم وبحوثهم، خاصة في سيمانر التاريخ العثماني الذي تشرف عليه الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، دعمه المادي والمعنوي لمجموعات من الشباب، يوحى إليهم بالاستقلالية «كن رجلاً ولا تتبع خطواتي» والاعتماد علي الذات، وهو الأمر الذي جعلهم يتطورون ويكتسبون بصيرة وخبرة حتي من خلال احتكاك بالآخر.

من خلال عمله ومجموعة 9 مارس لاستقلال الجامعة، لم يقف رعوف عند الوعي والإيمان بضرورة التطور والتغير والتقدم بل حاول بقدر ما استطاع بالفكر والممارسة تحقيق ذلك وهو المؤمن حقاً بأن المجتمع تحكمه قوانين ضرورية تحتم عليه التطور والتغير، هذه القوانين تتحقق بإرادة الأفراد والعمل الجماعي.

الشيء المدهش حقاً، وهو في مرضه الأخير كان نموذجاً فذاً فريداً في إنكار الذات، في إعلاء قيمة المثابرة والإقدام وهو في فراش المرض مهموم بهم الوطن، هم طلابه، يرسل إلي أعماق القلوب والعقول أشعة الأمل، لأمر الذي يملؤها ثباتاً وإقداماً، في شدة مرضه وآلامه ينادي أبناءه الطلاب أن يفكروا ويكتبوا ويعملوا.

أتذكر أنني أهديت إليه إحدي كتبي ولم أجد أجمل ولا أحسن مما كتبه قاسم أمين لسعد زغلول عندما أهداه كتابه «المرأة الجديدة» عام 1900: فيك جدت قلباً يحب وعقلاً يفكر وإرادة تعمل أنت الذي مثلت إلي المودة في أكمل أشكالها فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها ذلك هو سر السعادة الذي رفعت صوتي لأعلنه لأبناء وطني. أستاذي رعوف عباس، علمتنا، وتعلمنا منك الكثير، فتحت عقلك وقلبك النابض بالحياة لنا، سيرتك الطيبة ماثلة أمامنا، أراها في وجه ندي الطفلة التي أحبتك لأنك أهل لذاك الحب.

[http://www.elbadeel.net/index.php?option=com\\_content&task=view&id=23802&Itemid=41](http://www.elbadeel.net/index.php?option=com_content&task=view&id=23802&Itemid=41)